أمثلة من الترجمة

Ute Krause

Im Labyrinth der Lügen

cbj Verlag, München 2016

ISBN 978–3–570–17292–6

20–7 صفحات

Ute Krause

في متاهة الأكاذيب

ترجمة: هبة شلبي

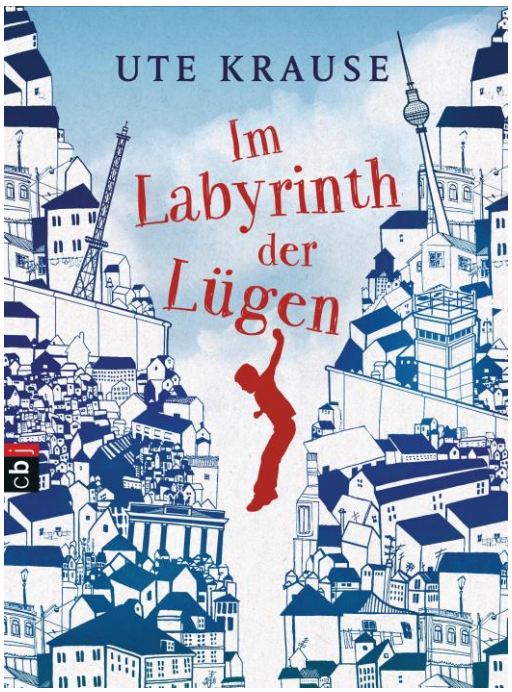

© 2016 cbj Verlag, München / Arabic Translation: © 2016 Litrix.de

البلد المجهول

أشرق وجه پاول. لم يكن ليحلم بهذا! أخذ يتصور في مخيلته الخبر الذي سيصدر في الصحيفة عما قريب.

صحيفة برلين الصباحية
هل اكتشف سر الشباب الدائم ؟ باحث برليني يعثرعلى لقية مثيرة في متحف برجامون. اكتشف أن معارف المصريين السرية مخبأة في أحد أحجار بوابة عشتار. بدأت شركات الأدوية تستشعر الإمكانات التجارية الهائلة الكامنة في هذا الاكتشاف الجديد.الصفقة الكبرى. هل سنجد ينبوع الشباب الدائم في وصفات الأطباء قريباً ؟

إن العم هنري هو وحده المسؤول عن ذلك. كانت للقصة آنذاك بداية مختلفة تمامًا. ولم يكن أحد ليتصور، لاسيما هو، إلى أي مدى ستزداد القصة خطورة وتعقيدًا فيما بعد...

بدأت القصة برمتها قبل عدة أعوام في يوم تقليدي من أيام السبت.

"تعال، سأريك سرًا"، هذا ما قاله العم هنري وأخذ پاول إلى ناحية مهجورة من محطة فريدريشستراسيه. كانت هناك سقالة مغطاة بقماش مشمع خلف حاجز. وحينما لم يكن أحد منتبهًا إليهما، قفزا من فوق الحاجز وتسللا خلف القماش المشمع، الذي أخفى وراءه بابًا معدنيًا لونه رمادي يؤدي إلى نفق تتلاشى معالمه في الظلام.

قال العم هنري: "في يوم من الأيام، كان هذا ممرًا سريًا، وكان الناس في الماضي يفرون من هنا إلى الغرب."
فتساءل پاول قائلًا: "وكيف ذلك؟"
"انتظر فقط!"
سار پاول خلف عمه وهو يتلمَّس طريقه بحذر، حتى وصلا إلى جدار من الطوب يسد الطريق أمامهما.
همس العم هنري قائلًا: "أترى، لم يعد بالإمكان اليوم الوصول لأبعد من ذلك . قام حرس الحدود ببناء جدار لغلق الطريق. ولكن، انتبه الآن. إذا ما أنصتَّ جيدًا، ستتمكن من الاستماع إلى الغرب، وكأنك تقف على الجانب الآخر. تذكَّر هذا!
كان العم هنري قد وضع خده على الجدار، فقلَّده پاول وضغط أذنه عليه بشدة. سمع فجأة من مسافة بعيدة دوي قطار قادم وصرير الفرامل وصوت المتحدِّث في المذياع. ورغم كونه مشوشًا بسبب صدى الصوت، إلا أنه حين أنصت جيدًا، استطاع أن يفهم ما يقوله ذلك الرجل على الجانب الآخر: "هنا تنتهي كل الخطوط، هنا تنتهي كل الخطوط. العودة إلى برلين الغربية من الرصيف المقابل. على الركاب العابرين الخضوع لإجراءات فحص الجوازات."

حتى هذه اللحظة لم تكن برلين الغربية بالنسبة لپاول أكثر من مجرد كلمة، مجرد بقعة بيضاء في أطلس المدرسة، بقعة محاطة بجدار وجزء من بلد أجنبي يُدعى ألمانيا الغربية. كانت قريبة للغاية وفي الوقت نفسه لا يمكن الوصول إليها، وذلك لأن پاول كان يعيش على الجانب الآخر من هذا الجدار، في برلين الشرقية.

أخبرته جدته أنه لا يمكن الذهاب إلى برلين الغربية إلا بعد بلوغ الخامسة والستين، أي بعد التقاعد عن العمل، وأنها المحطة الأخيرة قبل الجنة، بمثابة جولة جانبية قصيرة قبل الصعود إلى الرب.

لازال على پاول الانتظار طويلًا حتى ذلك الحين، ثلاثة وخمسين عامًا على وجه التحديد. أما الجدة، فوضعها مختلف، لأنها ستبلغ الخامسة والستين بعد عامين، أي سيتسنى لها الذهاب إلى برلين الغربية بعد عامين.

© 2016 Litrix.de

في صباح اليوم التالي أصبح لتلك البقعة البيضاء في أطلس المدرسة معنى مختلفًا كليًا في نظر پاول. ها قد أدرك الآن سبب اصطحاب العم هنري له في اليوم السابق إلى النفق. منذ ذلك الحين تغيَّر كل شيء. ففي يوم الأحد، وبينما كان يتناول فطوره، أخبرته جدته أن أبويه أصبحا يعيشان الآن في الغرب.
رد عليها پاول قائلًا: "مزحة سخيفة!"
هزَّت الجدة رأسها ونظرت إلى پاول بجدية شديدة جعلت پاول يدرك أنها لم تكن تكذب عليه. في هذه اللحظة ساد الصمت بداخله، لدرجة أن تكات ساعة المطبخ الخافتة أخذت تدوي فجأة بصوتٍ عالٍ في رأسه.
همس پاول قائلًا: "ولكن، كيف خرجا من السجن؟ وكيف تمكَّنا من اجتياز الجدار؟"
لا أحد تقريبًا يستطيع أن يجتاز هذا "الستار الحديدي"، على حد وصفهم لهذا الجدار. ومن يحاول اجتيازه، فإنه يتعرض للاعتقال أو للقتل رمياً بالرصاص .
أمسكت الجدة يد پاول بكفها الكبيرة الطرية وضغطت عليها بشدة. أطالت النظر إلى بقعة المربى الموجودة على طاولة المطبخ ووجَّهت إليها حديثها بأسلوب جاد ورسمي، جعلت پاول يشعر برعشة خفيفة تسري أسفل ظهره:
"تخيل يا بني أن أحدًا قد دفع فديتهما."
كان للجدة عادة صوت أجش للغاية، يكاد يكون ذكوريًا. قال العم هنري أن هذا بسبب دخان السجائر الكثيف، ولأن الجدة لا تستمتع أبدًا لصوت العقل. أما الآن، فقد بدا صوتها منكسرًا للغاية.
سألها پاول وقد اختلط الأمر عليه تمامًا: "دفع فديتهما؟" "ماذا تقصدين بذلك؟"
"من دفع فديتهما؟ وإذا كانا طليقين، فلِمَ هما هناك وليس معنا؟"
قفز پاول من مكانه واصطدم بطاولة المطبخ المتأرجحة لدرجة أن قهوة الجدة أخذت تتدلدق على الصحن أسفلها.
"ومتى سيأتيان إلينا؟"
لم يكن من السهل إخراج الجدة من هدوئها عادة، أما اليوم، فالوضع مختلفٌ. أخذت شفتها السفلية ترتجف بعض الشيء وبدت التجاعيد المحيطة بفمها أكثر عمقًا.
حدَّق پاول نظره إليها قائلًا: "إنهما آتيان، أليس كذلك؟"
انحنت الجدة على حوض المطبخ والتقطت الفوطة الصغيرة المعلَّقة هناك. كان مطبخها صغيرًا للغاية ومكان الحوض بجوار الطاولة عمليًا للغاية، فلم تكن مضطرة للوقوف لإحضار فوطة التنظيف. لاحظ پاول كيف حاولت جدته أن تمسح دموعها من طرفي عينيها دون أن تلفت انتباهه، فشعر هو الآخر فجأة بالرغبة في البكاء.
أخذت الجدة تمسح البقع وفتات الخبز عن طاولة المطبخ بعناية شديدة، واستغرقت في ذلك وقتًا أطول من المعتاد.
تلك الجدة هي والدة والد پاول والعم هنري، الذي كان يعامل الجدة دومًا وكأنها مجنونة بعض الشيء، في حين أنها كانت أطيب وأشجع جدة على الإطلاق، فلولاها لكان پاول لا يزال قابعًا في ذلك الملجأ البشع.
صاح پاول وقد نفذ صبره: "ماذا إذن؟!" "هيا أجيبيني!"
ألقت الجدة بفوطة التنظيف في الحوض مجددًا وسحبت سيجارة من خلف أذنها وأشعلتها. نفخت الدخان ببطء في اتجاه السقف، فأخذ يشكِّل سحبًا بيضاء شفافة تلمع في ضوء الصباح وتتصاعد ببطء إلى أعلى متخذة أشكالًا لولبية.
قالت الجدة بصوت خافت: "قام أحد بدفع فديتهما. من أولئك الناس هناك"، وأشارت بسيجارتها بشكل مبهم في اتجاه برلين الغربية. "يقومون أحيانًا بدفع فدية لإطلاق سراح بعض السجناء السياسيين، وأبواك كانا محظوظين جداً."
عدلت الجدة نظارتها، التي جعلت عيونها تبدو أكبر حجمًا على الدوام، ونظرت إليه في ترقُّب. وحين وجدت أنه لم يعلِّق على حديثها، استطردت قائلة: "إن ما حدث هو أن والدتك لم تكن بحالة جيدة في السجن، وخاصة في السنة الأخيرة. لم أخبرك بذلك قط حتى لا أثير قلقك. ولكنها أصيبت هناك بالتهاب في الحوض الكلوي. أنهكها المرض كثيرًا. وهي بحاجة ماسة لأطباء ماهرين."
نقرت الجدة بحذر على السيجارة ليتساقط رمادها في الطفاية وهمهمت قائلة: "لقد حصل أبواك أخيرًا على الفرصة لبدء حياة جديدة."
"حياة جديدة!"، قالها پاول ونظر إلى أسفل. "سيبدآن حياة جديدة – من دوني؟"
انحنت الجدة إليه وأمسكت يده برقة. "حبيبي، أبواك على استعداد لفعل أي شيء ليكونا معك، صدقني. ولكن لا يجوز لهما العودة إلى هنا مجددًا بعدما حدث. سوف يتم إلقاء القبض عليهما بمجرد أن يضعا قدمًا واحدة على الحدود."
سألها پاول بصوت خافت: "ولكن، متى سأراهما مجددًا؟"، وأحس أن تلك الكتلة التي شعر وكأنها تسد حلقه تتضخَّم أكثر فأكثر.

أطفأت الجدة سيجارتها وجذبته بين ذراعيها قبل أن يستطيع مقاومتها، وحضنته وضغطته بشدة نحو صدرها الضخم. أخذت تهدهده كما كانت تفعل في الماضي وهو طفل صغير. وكانت قد أخبرته ذات يوم أن أمها كانت تهدهدها بين ذراعيها على هذا النحو حينما كانوا يختبئون في المأوى من القنابل التي كانت تنفجر أثناء الحرب من حولهم في كل مكان. وها هي الآن تفعل الشيء نفسه مع پاول. ولكنه شعر أنه أصبح كبيرًا على ذلك باعتباره صبيًا في الثانية عشرة من عمره، حتى وإن كان يشعر بالتعاسة. حرَّر پاول نفسه من أحضان جدته ونظر إليها متسائلًا:
"أجيبيني! متى سأراهما مجددًا؟"
أطلقت الجدة زفيرًا مسموعًا عبر شفتيها.
همهمت قائلة: "الله وحده يعلم يا بني. الله وحده يعلم."

كان من الصعب على پاول الانتباه في الفصل في اليوم التالي، فكل الأفكار كانت تحوم في رأسه محدثة فوضى كبيرة وكأنها تركب قطار الملاهي.
وكانت جدته قد وصَّته في الصباح مجددًا، بينما كان يحاول السيطرة على شعره الهائج أمام المرآة، ألا يخبر أحدًا عن أمه وأبيه. كما لو كان بحاجة لهذه التوصية! كان پاول قد تعلَّم في هذه الأثناء أن الالتزام بالصمت قد يكون هو الخيار الأذكى في بعض الأحيان. كما لم يكن لديه أحد في الفصل يستطيع أن يتحدَّث معه حول هذا الموضوع.
أطالت المعلمة جوتسِه النظر إلى پاول، بينما كانت التموجات الدائمة لشعرها الأشقر تقفز إلى أعلى وإلى أسفل حول رأسها النحيف وجناحا أنفها يرتجفان. كانت تبدو بأنفها المدبب وذقنها المنحسر كالعصفور: عصفور شعره مموج. أخذت تطرق بالطبشور على السبورة وقد نفد صبرها، ووجَّهت إليه في هذه اللحظة نظرة حادة، فانتشل پاول نفسه من أفكاره.
قالت له وهي تبتسم ابتسامة صفراء مريرة: "أكره أن أزعجك في أحلامك." واستطردت قائلة: "ولكننا الآن في المدرسة ولدينا حصة تربية قومية. وأعرف أنها ليست مادتك المفضلة."
بدأ الآخرون يضحكون ضحكات مكتومة ويرمقونه بنظرات مختلسة. منذ أن انضم پاول لهذا الفصل وهو يُعتَبَر شخصًا حالمًا وغريب الأطوار بعض الشيء.
"هذا الصبي غريب الأطوار." "وانطوائي للغاية.". هذا ما قالته المعلمة جوتسِه لجدة پاول في أحد اجتماعات الآباء.
إلا أن كل ما في الأمر هو أن پاول أصبح حذرًا. وهو أمر بديهي، بالنظر إلى ما حدث في ذلك الصيف آنذاك قبل عامين؛ ذلك الصيف الذي تغيَّر فيه كل شيء. فمنذ ذلك الحين، أصبحت هناك أشياء كثيرة لا يستطيع، ولا يجوز له حتى أن يتحدث عنها أو أن يبوح بها لأحد. وحينما يحمل الشخص سرًا حزينًا، فإنه يأتي عليه يوم يلتزم فيه الصمت التام.

كوابيس ومفاجآت

حين عاد پاول من المدرسة لم يكن هناك أحد بالبيت، فقط روائح القهوة وغبار الفحم تنبعث من الردهة. وكانت الجدة قد أغلقت كافة الأبواب المفتوحة على الردهة، هذا ما كانت تفعله دومًا في الأيام الباردة، لتحتفظ بالدفء داخل الغرف. ذهب پاول إلى غرفة المعيشة وفتح باب الموقد المقرمد القديم ووضع أحد قوالب الفحم المضغوط على الجمر. كان عليه ألا يُسرف في استخدامها، لأن مخزون الجدة من الفحم لهذا الشتاء كان على وشك النفاد.
ثم اتكأ على الموقد وأغمض عينيه وبسط ذراعيه. تسلَّل ذلك الدفء المريح الذي يشعه القرميد إلى جسمه. كان پاول قد رأى زهرات الزعفران الأولى في طريق عودته إلى المنزل. ليت الربيع يأتي سريعًا. ويا ليت، ياليت كل شيء يعود في يوم من الأيام... لم يتجرأ پاول على تخيُّل ما يتمناه، لأنه لم يكن من الممكن أن تعود الأمور لما كانت عليه في الماضي أبدًا.
دخل پاول المطبخ ليجد شطائر محشوة داخل كيس وتُرمس به شاي على الطاولة بجوار ورقة، كتبت عليها الجدة بخطها الذي يشبه الشخبطة: "*عزيزي پاول، سأعود اليوم في وقت متأخر جدًا. اليخني في الثلاجة. الشطائر من أجلك أنت والعم هنري. مفاجأة صغيرة: يمكنك أن تزوره الليلة في المتحف!*"

كانت تلك مفاجأة حقًا! لم يتسن لپاول أبدًا زيارة عمه في عمله ليلًا. كما أن پاول لم يكن يحب أن يبقى ليلًا بمفرده في الشقة بأي حال من الأحوال. ولكن جدته كانت تقول له أنها ليس أمامها خيار آخر. لازال پاول يرى كوابيس في بعض الأحيان، ويستيقظ وقلبه يخفق بشدة. ومنذ ذلك الحين، وهو لا يستطيع النوم إلا والأنوار مضاءة. ورغم ذلك، كان بحاجة لوقت طويل ليستوعب أنه لم يعد في هذا المكان الرهيب، وحتى يهدأ قلبه عن الخفقان الشديد.
من حسن الحظ أن الجدة لم تكن تغيب كل ليلة، بل فقط حين تتولى العمل خلال النوبة الليلية.
كانت جدته عاملة نظافة في مراحيض فندق المتروپول.وكانت سابقاً موظفة في مكتبة عامة. شعر پاول أنها كانت تستمتع أكثر بكثير بالاعتناء بالكتب عن مسح بقايا تبُّول الغرباء. ولكن الجدة كانت تدَّعي أنها سعيدة بعملها قائلة: "ليست للنقود رائحة كريهة، وخاصة إن كانت تأتي من الغرب."
كان پاول يدرك تمامًا ما تعنيه. ففي بعض الأحيان كانت الجدة تحصل على عملة ألمانية غربية كبقشيش، وكانت أكثر قيمة بكثير من العملة الشرقية. وكانت تدخرها إلى أن يصبح معها ما يكفي لشراء قهوة أو سجائر أو لوح من الشوكولاتة من متجر السلع المستوردة. وكان الأمر بالنسبة إليها وكأنه احتفال صغير، لأن قهوة الغرب كانت مصنوعة من حبوب القهوة الخالصة المطحونة ولم تكن مخلوطة بالحبوب كقهوة الشرق، والتي كانت تسميها "تتويج إريش" كنوع من السخرية (على نفس وزن ماركة القهوة الشهيرة "ياكوبس كرونونج"). كما أن مذاق الشوكولاتة من متجر السلع المستوردة كان أفضل بكثير من متجر السلع المحلية.
كان العم هنري شقيق الأب الأصغر، وكان يعمل حارسًا ليليًا في متحف برجامون. ودائمًا ما كان يحب أن يخبر الجميع أنه المسؤول عن حراسة مذبح شهير يعود تاريخه إلى ما يقرب من ألفي عام وذي قيمة كبيرة جدًا. ولم يفلت پاول أيضًا من محاضرات العم هنري عن التاريخ اليوناني القديم.
زار پاول عمه بضع مرات في المتحف، كلما كان لديه بعض الأعمال لينجزها خلال النهار. وحينها أطلعه العم هنري على مذبح برجامون الشهير والمجموعة الأثرية. رغم أن پاول قد تساءل كيف يمكن لبضع شقف وأحجار عتيقة أن يكون لها مثل هذه القيمة، إلا أنه لم يستطع الإنكار أن هذا المذبح كان مثيرًا للانتباه حقًا.
في الماضي، حينما كان پاول لا يزال يعيش مع أبيه وأمه في جرايفسفالد، كان العم هنري يدرس علوم الآثار في برلين، وكان من الممكن أن يظل منشغلًا طوال الوقت بتلك الأغراض العتيقة. إلا أنه توقَّف عن ذلك فجأة فيما بعد، وذلك عقب حادثة والديّ پاول. وإذا ما سأله پاول عن سبب تفضيله العمل كحارس ليلي بدلًا من أن يصبح عالم آثار، كان يتظاهر وكأنه لم يسمع السؤال أو يغيِّر الموضوع سريعًا. ربما كان لدى العم هنري هو الآخر سر لا يستطيع البوح به لأحد.

عاد پاول إلى غرفة المعيشة مرة أخرى وفتح التلفاز، الذي كان موضوعًا على البوفيه بجوار الكنبة، وكانت الجدة تعتز به كثيرًا. بدأت اللقطات التلفزيونية على الشاشة تومض باللونين الأبيض والأسود، فضغط پاول على الأزرار لتغيير القنوات وتوقَّف عند أولى قنوات تلفزيون الغرب وأخفض صوت التلفاز، كعادتهم دائمًا عند مشاهدة تلفزيون الغرب. وذلك لأن جارهم العجوز، ماركوفيتش، الذي يسكن أمامهم، كان "شخصًا متطرفًا" و"يشي بالآخرين"، على حد وصف الجدة. وكانت تقصد بذلك أنه إذا ما شك في الأمر سيخبر الشرطة أن أحدًا يشاهد تلفزيون الغرب، وهو ما كان محظورًا في ألمانيا الشرقية.

إلا أن پاول علَّق على حديث جدته قائلًا: "ولكن الجميع يفعلون ذلك."
فردت عليه الجدة قائلة: "أجل، ولكن علينا أن نتوخى الحذر بشدة، خاصة بعدما حدث. يمكنهم حرماني منك مجددًا في أي وقت، لو لم يعجبهم شيء. أتفهم ما أقوله؟" ومنذ ذلك الحين، وپاول يحرص بشدة على ألا يكون صوت التلفاز مسموعًا لأحد.
ظهر في التلفاز طفلان يركضان على المروج في إعلان عن زبدة. ابتسم الأب والأم وبسطا ذراعيهما. ثم أخذ الأب ابنه ورفعه عاليًا وأخذ يدور به. أكان أبوه يفعل نفس الشيء معه؟ لم يعد بإمكانه أن يتذكر.
حينما يقضي پاول بعض الوقت بمفرده، فإنه يتخيل أحيانًا كيف ستكون حياته لو كان أبوه وأمه معه. كان يتخيل أنهم لازالوا يعيشون في وسط الحي القديم بمدينة جرايفسفالد ويسافرون في عطلات نهاية الأسبوع إلى بحر البلطيق. حتى الأمس، كان ينتظر يوم خروجهما من السجن بفارغ الصبر لتعود الأمور حينئذ إلى ما كانت عليه في الماضي. أما الآن، فقد تطوَّرت الأحداث على نحو مختلف تمامًا. لم يعد مسموحًا لأبويه العودة إليه مرة أخرى.
شعر بتقلصات في معدته. تذكَّر أمه، وكيف كانت تقرأ له وهما مستلقيان على مفرش النزهات التي كانوا يقومون بها في الصيف. يسمعان من خلفهما أصوات خشخشة الحشائش وتتلألأ أمواج البحر من أمامهما. وتذَّكر أيضًا رائحة العطر المفضَّل لأمه، ذلك الذي كانت أرسلته إليها إحدى قريباتها من الغرب. كان عطرًا فرنسيًا. وحينما كانت الرياح تهب في اتجاهه، كانت تحمل إليه نفحات منه. لا يمكنه نسيان تلك الرائحة أبدًا، حتى وإن لم يكن مقدرًا له أن يشمها مجددًا. فلا يوجد هنا أي شيء فرنسيّ على الإطلاق.
هل كان أمه وأبوه سيحاولان الهرب آنذاك لو علما أنهما سيفقدان ابنهما جراء ذلك؟ كلا، كانا سيبقيان هنا. إنه على يقين من ذلك.
حينما كان العم هنري يأتي لزيارتهم في جرايفسفالد في الماضي، كان يتذمر هو والأب من الدولة وأكاذيبها العديدة.
كان الأب يقول آنذاك: "سيختنق المرء على المدى الطويل في وسط هذا العالم الذي لا يتكون سوى من الأكاذيب."
وكان العم هنري يتفق مع الأب في رأيه ويقول أنه ينبغي على المرء أن يسعى لإحداث تغيير لهذا السبب بالتحديد.، ليؤكد له الأب من جهة أخرى أن المرء سيصاب بالشيخوخة وسيشيب قبل أن تتغيَّر أحوال هذه الدولة.
في هذه اللحظة، كان الأب والعم هنري يحرصان دائماً على إرسال پاول بعيدًا، رغم أنه كان يجد تلك الأحاديث مملة في جميع الأحوال. فلم تكن لديه فكرة حينئذ عن نوايا أبويه، وعما ستحمله لهما في المستقبل.